حكاية يهود مصر .. العصر الأيوبي

حكاية يهود مصر : العصر الأيوبي / عمر مصطفى لطف.- القاهرة : الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٤.
٢٠٨ص ؛ ٢٠سم.
تدمك ٣- ٣٦٧ -٩٧٧-٧١٨ -٩٧٨

عرض وتعليق
أسماء الحسيني دهشان
ماجستير (فلسفة إسلامية)
كلية الآداب - جامعة عين شمس

فى إطار التأريخ الجديد للمجتمعات العربية عامةً والمصرية خاصةً، وإلقاء الضوء على مدى التأثير والتأثر بين فئات المجتمع المصري عبر تاريخه، يعرض لنا كتاب "حكاية يهود مصر .. العصر الأيوبي" حكاية احدى فئات المجتمع المصري وهم اليهود، والذين عاشوا بين طوائف المجتمع المصري الأخرى (المسلمين والنصارى) فى سلام، تأثروا بالحضارة المصرية وتفاعلوا معها.

والكاتب هو الدكتور عمر مصطفى لطف، حاصل على الدكتوراه من كلية الدراسات العليا للتربية عن رسالة دكتوراه بعنوان "تعليم يهود مصر منذ الدولة الفاطمية حتى الفتح العثماني"، وله عدة مؤلفات أخرى منها : "تاريخ الصقالبة فى الأندلس" و"الآخر في المجتمع الإسلامي"، وعدة مقالات منشورة في مجلات ثقافية مصرية وعربية، وشارك فى مؤتمرات محلية ودولية كثيرة.

ينقسم الكتاب إلى أربعة فصول تقدم لنا رؤية شاملة لحياة يهود مصر في العصر الأيوبي، فالفصل الأول بعنوان "الدولة الأيوبية واليهود"، والفصل الثاني بعنوان "الوجود الثقافي والعلمي ليهود مصر في العصر الأيوبي"، أما الفصل الثالث بعنوان "الحياة الاجتماعية والدينية لليهود فى العصر الأيوبي"، وأخيرًا الفصل الرابع بعنوان "الحياة الاقتصادية والتجارية لليهود فى العصر الأيوبى".

يناقش الكاتب فى الفصل الأول العلاقة بين الحكومة والجماعة اليهودية، فنجد أن الدولة تركت لليهود حرية ممارسة شعائرهم الدينية، كما بقي التشريع والقضاء والتعليم والمساعدات الاجتماعية من صلاحيات رئيس اليهود، مع الحفاظ على حق اليهود دائمًا في اللجوء إلى القضاء الإسلامي إذ رغب فى ذلك. وكان من حقهم الشكوي إلى السلطان مثل باقي الرعية، ويقول الألماني فيتزتوم بوركهارد - ملاح الامبراطور فريدريك بارباروسا - "إن اختيار العقيدة كان مكفولاً للجميع بحرية مطلقة". ولقد زار الملاح مصر في عام (٥٧١هـ/ ١١٧٥م).

كان رؤساء اليهود هم الواسطة بين الدولة ورعاياها من اليهود، واعتبرتهم الدولة دائمًا من الموظفين الرسميين في الدولة. ورغم أن حق اختيارهم كان متروكًا لجماعتهم، إلا أن تواقيع تعيينهم (قرارات التعيين) كانت تصدر عن ديوان الإنشاء ؛ الذي كان أهم دواوين الدولة وبتوقيع السلطان أو علامته. كما أن الوصايا التي تحوي التعليمات الخاصة بواجبات الوظيفة كانت تصدر أيضًا عن ديوان الإنشاء، وكانت هذه القرارات تبدأ عادة بالتقرير المعتاد عن موقف السلطان من أهل الذمة، ثم موقف الدولة من هذه الطائفة أو تلك من أهل الذمة، لما لها من فضل ومكانة لدى الدولة، ثم يبدأ التوقيع أو القرار فى تحديد مهام الوظيفة.

تمتع اليهود برئاسة مستقلة امتدادًا لما كان قائمًا فى عهد الفاطميين، وهو المنصب الذى عُرف بالناجد (الناغيد)، والذى تولاه عدد من كبار اليهود، وأصبح وراثيًا منذ القرن (١٣م) في مصر، وكان يقابله "رأس الجالوت" وهو رئيس اليهود في العراق.

وعن أوقاف أهل الذمة عامة، فقد اطمأنوا في العصر الأيوبي إلى حماية الدولة لأملاك وأوقاف وأحباس كنائسهم وأديرتهم ومعابدهم. ويقدر جواتياين الدخل السنوي العام من الأوقاف بعشرة آلاف درهم (حوالى سنة ١١٨٠م)، وقد غطى هذا المبلغ نفقات الطائفة على الخدمات الضرورية إلى حد كبير.

ويشير الكاتب إلى ملاحظة مهمة ؛ حيث إن أعداد اليهود فى المناطق الإسلامية عامةً في الشرق أكثر عددًا من أعداد اليهود في المناطق الصليبية، وكانت مهنهم أكثر رقيًا. وبينما كان اليهود في ذلك العهد يئنون - كما يزعم المستشرقون - فى الأندلس والمغرب واليمن تحت نير "الاضطهادات الدينية القاسية"، كان اليهود فى مصر الأيوبية يتمتعون - كجميع الطوائف والنحل الأخرى - بحياة هنيئة حرة طليقة. بل واستقبل صلاح الدين اللاجئين القادمين من أسبانيا - مثل ابن ميمون - "استقبالاً مرضيًا". ولهذا صارت مصر "قبلة أنظار اليهود فى الغرب والشرق". بل ونجد أن اليهود هاجروا بأعداد كبيرة من جزيرة كريت إلى مصر بعد سقوطها بأيدي البنادقة سنة (١٢٠٤ م).

ومن الملاحظ أن النسبة العددية لليهود كانت تزيد في المدن والمؤانيء الرئيسية عنها في المناطق الريفية، ورغم أن اليهود المصريين عاشوا أيضًا في الريف ؛ حيث مارسوا أعمال المال والتجارة الصغيرة، ولكن نسبتهم العامة في الريف كانت أقل من نسبتهم في المدن، وذلك لأنهم لم يشتغلوا بالعمل الزراعي.

وكان اليهود في بداية العهد الأيوبي في أسوأ حال في العالم العربي ؛ حيث حرّم عليهم الصليبيون دخول القدس بعد طردهم منها غداة نجاحهم في الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٩م)، وفقد اليهود بذلك امتياز الحياة في المدينة المقدسة وحرية التنقل والمعيشة في مدن فلسطين الأخرى. وكان فتح صلاح الدين لبيت المقدس سنة (١١٨٧م) نقطة التحول في تاريخ اليهود، حيث طلب صلاح الدين من اليهود العودة إلى القدس، وتحولت الهجرة اليهودية إلى القدس وفلسطين إلى حركة عامة، وازدهر المجتمع اليهودي في القدس مرة أخرى، بعد ما أظهره صلاح الدين من تسامح وعفو مع أهل المدينة وأمنهم على أرواحهم (عكس ما فعله الصليبيون معهم إبان الحملة الصليبية الأولى).

أما الفصل الثاني، وهو بعنوان "الوجود الثقافي والعلمي ليهود مصر فى العصر الأيوبي" ؛ فقد أكدت الديانة الإسلامية على حق أهل الذمة في حرية الاعتقاد، وشجعتهم على الاندماج في المجتمع الإسلامي، مع التأكيد على المساواة مع بقية طبقاته في الحقوق والواجبات، وهو ما أكده المستشرقون الأوروبيون والمؤرخون اليهود أنفسهم. ونبغ بعض أهل الذمة في شتى المجالات العلمية والثقافية والاقتصادية في التاريخ المصري. ونحاول في بحثنا رصد ملامح الحياة الثقافية والعلمية لليهود في العصر الأيوبى.

كان اليهود ذو براعة في فن النثر، والذى يتطلب دراسة ومعرفة وثيقة بمفردات اللغة العربية، وأدت هذه البراعة إلى إتاحة فرصة العمل لهم في ديوان الإنشاء، هذا المنصب الذي لا يتولاه إلا أجّل كتّاب البلاغة. كانت اللغة العربية وتعليم الخط العربي من ضمن المناهج اليهودية ابتداء من المرحلة الابتدائية. وكان اهتمام اليهود بتعليم اللغة العربية والخط العربي لأولادهم يعود إلى تقريب الدواوين في القرن الأول الهجري حتى يتسنى لهم تولي الوظائف الحكومية. وكان الكتّاب اليهود يكتفون باللغة العربية والعبرية، وتعلموا في مدرسة الخطين العربى والعبرى سويًا.

أما دراسة الطب فى مصر، فلقد استمرت عند اليهود بتشجيع السلاطين لهم، فنرى أنه في الوقت الذي كانت تصدر فيه أوامر السلاطين بعدم استخدام أهل الذمة في الأعمال التي تخص الدولة، كان يستثنى منها ممارسة الطب.

وكان أبرز الأطباء هم الذين كانوا يعملون بالبيمارستانات، بل سعى الأطباء للعمل بها

لأسباب تتعلق بالوجاهة أو بالمنزلة الاجتماعية. وكان العمل بالبيمارستان يستلزم المبيت بها ليلاً، أو ما نطلق عليه الآن نظام النوبتجيات، ويظهر ذلك واضحًا من رسالة كتبها إبراهيم بن موسى ابن ميمون عام (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) ؛ حيث ذكر فيها أنه لم يستطع أن يحضر حفل زفاف لأن دوره في السهر بالمستشفى كان في ليلة الحفل، كما أنه لم يرد تعيين بديل له لأسباب خاصة.

كان لبعض الأطباء تلاميذ تحت يدهم، يتعلمون منهم أو يشتغلون معهم، مثل الطبيب ابن ميمون، وأبي البيان بن المدور. ومارس بعض الأطباء - بجانب الطب - مهنة نسخ الكتب العلمية.

ثم يعرض الكاتب في الفصل الثاني أيضًا سير علماء وأدباء يهود عاشوا فى العصر الأيوبي، ومنهم : أبو البيان بن المدور، الطبيب هبة الله الإسرائيلي، أبو المنى إبراهيم بن موسى بن ميمون، يوشع بن إبراهيم بن داود وابنه داود، وفي نهاية الفصل يتناول بالتفصيل سيرة أهم الشخصيات اليهودية في تاريخ الشريعة اليهودية، وهو موسى بن ميمون، والذي كان تأثيره في الدين اليهودي "تأثيرًا انقلابيًا"، وقد واصل أبناؤه وحفدته عمله فكانوا مثله علماء ويهود. واحتفظوا بتقاليد ابن ميمون في الفلسفة، وأصبح بعض اليهود يطبقون - في وقت ما بعد ذلك- آراء أرسطو على الكتاب المقدس، واستخدام المجاز والاستعارة في تفسيره استخدامًا يبلغ حد الشعوذة، ورفض ما جاء فيه من القصص والقول إنها غير صحيحة من الوجهة التاريخية، فقيل إن قصة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) وسارة ليست إلا خرافة تمثل المادة والصورة، وإن قواعد الطقوس اليهودية ليس لها إلا غرض رمزي وحقيقة رمزية.

ويعتبر لاهوته اليوم قانونًا أساسيًا في الفكر والتقليد الديني اليهودي ؛ حيث يتضمن لاهوته ثلاث نقاط أساسية : أسفار موسى الخمسة وهي القوانين الخمسة، والتلمود وهو الشرح، والتعليم الكتابي في فلسفة ابن ميمون التي تشكل تنظيمًا علميًا للدين اليهودي. ويعد ابن ميمون أعظم شراح الشريعة اليهودية، ومهذب لأحكام دينه العملية، ومدونًا لها بأسلوب يدعو إلي استساغتها عند جماهيرهم، بدون أن يتعرض "لتلك الحماقات" التي تملأ كتبهم إلا بالتأويل تقريباً لها إلي ما تلقاه من فلاسفة الإسلام من المبادئ، وهذا يدل علي التأثير الواضح للفلسفة الإسلامية عليه.

ويعده البعض أعظم فلاسفة اليهود في دائرة الثقافة الإسلامية وفي القرون الوسطي، وفي أوربا. وكان لكتبه "تأثير عظيم في التفكير الأوروبي في العصور الوسطى"، وتصفه احدى الوثائق بأنه "الرب العظيم في إسرائيل"، بل يرى بعض المفكرين أنه لم يظهر بين اليهود بعد ابن ميمون مفكرون ذوو شأن متناسين سبينوزا وغيره من رجال الإصلاح الديني اليهودي. ويذكر المؤرخون أنه عندما رحل ابن ميمون إلى مصر، بدأت نهضة ثقافية لليهود المصريين استمرت إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي.

ويتحدث الفصل الثالث من الكتاب الذي نعرضه، عن "الحياة الاجتماعية والدينية لليهود في العصر الأيوبي"، ونجد أن اليهود تفاعلوا مع واقع الحياة العملية للمجتمع المصري ؛ إذ شكلوا جزءً هامًا في بنيان المجتمع، يشاركون في أحداثه تأثيرًا وتأثرًا، ويخضعون لنفس الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي خضع لها العامة من المسلمين، وشاركوا في مجالات الحياة المختلفة، بل شكلوا في بعضها أغلبية ساحقة مثل مجال الطب، مما كان هذا دافعًا لسخرية المسلمين. وقد تحدد موقف العامة من المسلمين تجاه أهل الذمة طبقًا للمناخ العام الذي توفره السلطة الحاكمة لأهل الذمة، فإذا تشددت السلطة الحاكمة معهم "طمع أوباش المسلمين فيهم وأهانوهم". وكانت بيوت اليهود متاخمة لبيوت المسلمين والمسيحيين، وكانت هناك فرص كثيرة للاختلاط اليومي.

عامل السلاطين الأيوبيون أهل الذمة معاملة تنطوي على العطف والرعاية، وإذا كان أهل الذمة قد عاشوا بمثابة طبقة متميزة في المجتمع المصري ؛ فقد كان من بينهم كثير من الأسر العريقة ذات المكانة المرموقة، وتمتع كثير من اليهود بمركز اجتماعي ممتاز.

امتلك أهل الذمة الثروات الطائلة والأموال الكثيرة، منهم من ورثها عن آبائه وأجداده ، ومنهم من اكتسبها في التجارة أو حرفته، كما أن البعض منهم جمعها بطرق غير مشروعة. وامتلك عدد من اليهود، من الذين كانوا يتاجرون في تجارة الشرق أو التجارة الداخلية، وكانوا يمتلكون ثروات طائلة. بجانب امتلاك كبار أهل الذمة ممن حازوا مكانة اجتماعية مرموقة في مصر، القصور الرائعة والدور الفخمة، التي امتلأت بأفخم الأثاث وأندر التحف.

سكن أهل الذمة في الأحياء الراقية بالمدن المصرية، فضلاً عن حاراتهم الخاصة، وإذا كانت الفسطاط - وبخاصةً حى المصيصة - سكن الوزراء وكبار رجال الدولة، فقد سكن هذا الحي وغيره من الأحياء الراقية كبار رجال أهل الذمة وأثريائهم، كذلك ألحقت بهذه الأحياء الراقية والقصور الفخمة، الحمامات الخاصة بهم، ولكن معظم التجار اليهود الأثرياء تركوا الفسطاط ليسكنوا في القاهرة. وكان عدد كبير من يهود القاهرة من كبار الأغنياء ومشاهير العلماء.

وكان هناك استقطاب اجتماعي ليهود الإسكندرية ؛ حيث إن الفرق الطبقي بين الأغنياء والفقراء بدأ أكثر حدة منه في مكان آخر، وكان تجار الإسكندرية الأثرياء يمتلكون البيوت والعبيد، أما الفقراء فكانوا يتكسبون عيشهم من مختلف المهن والحرف اليدوية.

امتطى أهل الذمة من ذوي المكانة الاجتماعية الرفيعة في المجتمع المصري، أغلب الركوبات وأعلاها، وشاهد عبد اللطيف البغدادي في سنة (٥٩٨هـ) الحمر الفارهة جدًا الغالية الثمن، بالسروج النفيسة يركبها رؤساء أهل الذمة، وفي سنة (٦٤٠هـ) رأي المؤرخ ابن سعيد في

مصر كبار أهل الذمة وهم يركبون البغال.

وفاز كبار أهل الذمة بالألقاب الرنانة التي تدل على مكانتهم المرموقة في الدولة، ويسخر ابن ميمون في كتابه "المشناه" من الألقاب الرنانة الطنانة التى كان يولع بها يهود مصر، ولكن ما لبث ابن ميمون أن غير رأيه فيما بعد، وعندما برزت المعارضة ضد هذه العادة وأخذت رأى ابن ميمون، فقال فى فتواه إنها ليست ضارة ولم تكن محل معارضة، ونجد أنها كانت أيضًا إجابة حبر يهودي بيزنطي جاء إلى مصر، عندما سُئل حول نفس الأمر.

ولم تتعرض المعابد اليهودية لأية قيود طوال العصر الأيوبي ؛ حيث لم يفرض السلاطين - الذين توطدت العلاقة بينهم وبين رؤساء اليهود في مصر - أية قيود على المعابد اليهودية، بل انتعشت في عهدهم، وبخاصة في عهد صلاح الدين.

وكان للتصوف الإسلامي - في العصور الوسطى - تأثير قوي في الحياة الفكرية لليهود، وقد اعتبرها البعض نوع من محاولات التكيف لدى يهود مصر، وبازدهار الطرق الصوفية برعاية السلاطين، تشكلت حلقات صوفية يهودية في القاهرة والإسكندرية، ضمت عددًا من الخامات والأطباء والقضاة، على رأسهم إبراهيم بن موسى بن ميمون (في العصر الأيوبي) والذي أتهم بمحاولته إدخال "البدع" إلي الديانة اليهودية، وقد أصدر كتابًا باللغة العربية (ولاحظ اللغة العربية وليس العبرية) في التصوف اليهودي أسماه "كفاية العابدين". وكان إبراهيم يميل إلى الآراء الصوفية الإسلامية.

وعن ملابس اليهود في العصر الأيوبي ، فيذكر الكاتب إنه كان من عادات اليهود، الحرص علي ارتداء ملابس جديدة في الأعياد، خاصةً في عيد الغفران، أو يوم الكفارة، أو أيام الصيام، ففي رسالة كتبت في حوالي (٦٢٦-٦٢٧هـ/١٢٢٨-١٢٢٩م)، طلبت سيدة -من عدن- فيها من ابنها، الذي كان مسافرًا إلى القاهرة، أن يشتري لها فستانًا جديدًا "ليوم الغفران". وربما أثرت البيئة الإسلامية -كما يقول جواتياين- على اليهود في عادة ارتداء الملابس الجديدة يوم الأعياد أو في الصيام، رغم أن هذه العادة لم تكن منتشرة بين يهود أوروبا المسيحية في العصور الوسطى.

أما الفصل الرابع والأخير ؛ فيتناول الحياة الاقتصادية ليهود مصر في العصر الأيوبي ؛ حيث يذكر الكاتب أن اليهود مارسوا في العصر الأيوبي ما سبق ممارستهم له في الدولة الفاطمية من جميع الحرف والصناعات مع بعض التغيرات. وقام اليهود بدور كبير في التجارة الداخلية، وفي تجارة المرور بين الشرق والغرب، وأسهم أهل الذمة بدور مهم في النشاط الصناعى أيضًا. وكل هذا النشاط الاقتصادي يعود لسياسة التسامح الديني التي نعم بها أهل الذمة في مصر الأيوبية، مما جعلهم يجنون ثروات طائلة.

كان هناك ٣٦٠ حرفة مختلفة لليهود في العهد الأيوبي، منها ٢٤٠ حرفة يدوية، وكان هناك تعاون مستمر قائم بين أهالي مختلف الديانات، ووصل هذا التعاون إلي درجة المشاركة في الأعمال وكذلك في المصانع.

وكان هناك تخصص عالي وتقسيم دقيق لنوعية العمل، ونجد حوالي أكثر من مائتين وخمسة وستين حرفة وصنعة مختلفة وردت في وثائق الجنيزة، "وهي تمثل جزءً من الصنائع التي كانت قائمة فعلاً"، ويظهر عدد الحرف التي احترفها اليهود "الحرية المهنية التي كانت موجودة، وأن هذه الحرية لم تكن بسبب التسامح التشريعي فحسب، ولكن أيضًا بسبب تركيب تلك الحقبة، وعلى الخصوص عدم وجود نقابات منظمة آنذاك تنظيمًا دقيقًا".

أثر هذا التخصص الواسع في حياة الصناع في وجوه كثيرة. وفي بعض الصناعات تقل المهارة والمعرفة الفنية المطلوبة إلي الحد الأدنى، إذا ما قورنت بمهارة العامل في العصر الحديث في نفس المجال. وفي البعض الآخر يبدو الإبداع ظاهرًا في أقصى درجته، ولا يزال البعض يُعجب بالصفة النفيسة في المصنوعات التي تعود إلى ذلك العهد.

تركز نشاط أفراد اليهود العرب في الفترة الصليبية، في بعض المهن المالية والصناعية، ولم يزعجها شيء فى استبدال حاكم بآخر، سوى احتمال أن يكون الحاكم الجديد أقل تسامحًا من الحاكم السابق.

قام اليهود بدور كبير في التجارة الداخلية، "وذلك بفضل سياسة التسامح التي نعموا بها أيضًا في زمن الدولة الأيوبية". فكانوا يزاولون تجارتهم في حرية تامة، مثلهم في ذلك مثل التجار المسلمين والنصارى، وكان التعاون التجاري بين المسلمين واليهود في مجال التجارة أمرًا شائعًا فى العصر الأيوبي.

ويحسب لمؤلف هذا الكتاب، فضلاً عن لغته المتميزة وإلقائه الضوء على قضية فئة لم يلق الضوء عليها بعد بشكل كافٍ من فئات الشعب المصري، ولكن يُحسب له أيضًا استعانته بوثائق أصلية وفرت له مادة علمية مميزة، ويذكرها الكاتب في نهاية كتابه لمن يحب مزيد من المعلومات.

ويهم هذا العمل العلمي المهتمين بالتاريخ المصري عامةً وتاريخ اليهود خاصةً، ويسلط الضوء بمنهج علمي مبسط على حياة يهود مصر ؛ ولهذا فالكتاب لا غنى عنه في المكتبات العامة والمكتبات الأكاديمية التاريخية.